الإمام المهدي المنتظر (عج) في نهج البلاغة – الثاني

الشيخ حيدر فاضل الشكري

بحث تأويلي دلالي

(٣)- قال (عليه السلام): «فَلاَ تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوكَائِنٌ مُرْصَدٌ، وَلاَ تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ الْغَدُ، فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ، وَمَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ!

يَاقَوْمِ، هذَا إِبَّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُود، وَدُنُو مِنْ طَلْعَةِ مَا لاَ تَعْرِفُونَ، أَلاَ وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاج مُنِير، وَيَحْذُوفِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ، لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً، وَيُعْتِقَ رِقّاً، وَيَصْدَعَ شَعْباً، وَيَشْحَبَ صَدْءاً، فِي سُتْرَة عَنِ النَّاسِ لاَ يُبْصِرُ الْقَائِفُ أَثَرَهُ وَلَو تَابَعَ نَظَرَهُ. ثُمَّ لَيَشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحْذَ الْقَيْنِ النَّصْلَ. تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُرْمَى بِالتَّفْسِيرِ فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ الْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ»[١].

الإمام اميرالمؤمنين (عليه السلام) في الفصل الأول من هذا المقطع من خطبته ينهى عن الاستعجال في أمر هومتحقق لا محالة، وفي خطبة أخرى يقول (عليه السلام): «لاَ تَسْتَعْجِلُوا بِمَا لَمْ يُعَجِّلْهُ اللهُ لَكُمْ»[٢].

والإنسان إذا ما أراد أن يصل إلى مراده لا بدّ له من الصبر والتروي، وعدم العجلة، وأن يضع الأمور في مواضعها، لكي يتجنّب الوقوع في ما يكره من العواقب.

ولا يخفى أنّه (عليه السلام) أراد هنا استعجال الشيعة لقيام القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف). هذا الأمر قد نهى عنه أئمة الهدى (عليهم السلام)؛ حيث أوصوا شيعتهم بالصبر والسكون حتى تحقق شرائط القيام وعلاماته. وقد وردت جملة الروايات في هذا المعنى ومنها:

روى النعماني في الغيبة: «أنّ الصادق (عليه السلام) قال في قوله تعالى:«أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)[٣]: «هوأمرالله تعالى، لا نستعجل به. يؤيّده ثلاثة أجناد: الملائكة، والمؤمنون، والرعب»[٤].

وروى: «أنّ مهزم الأسدي قال للصادق (عليه السلام): جعلت فداك، متى هذا الأمر الذي ننتظره، متى هو؟ فقال (عليه السلام): «يا مهزم، كذب الوقّاتون، وهلك المستعجلون، ونجا المسلّمون»[٥].

وعن الصادق (عليه السلام): «هلكت المحاضير». قيل: وما المحاضير؟ قال: «المستعجلون، ونجا المقّربون، وثبت الحصنُ على أوتادها، كونوا أحلاس بيوتكم. فإنّ الفتنة على من أثارها، وإنهم لا يريدونكم بجائحة إلّا أتاهم الله بشاغل لأمر يعرض لهم»[٦].

وعن الباقر (عليه السلام): «اسكنوا ما سكنت السماوات والأرض»[٧].

وروي: «أنّ إبراهيم بن هليل قال لأبي الحسن (عليه السلام): مات أبي على هذا الأمر، وقد بلغت من السنين ما قد ترى، أموت ولا تخبرني بشيء؟ فقال له: «أنت تعجل». فقال: أي والله أعجل، ومالي لا أعجل وقد بلغت من السن ما قد ترى، فقال: «أما والله يا أبا إسحاق، ما يكون ذلك حتى تميّزوا»[٨].

يقول (عليه السلام): «فكم من مستعجل بما إن أدركه ودّ أنّه لم يدركه».

وهنا نقول: لعل الإمام (عليه السلام) أشار إلى أمر هوغاية الأهمية؛ حيث أنّ الانتظار لأمر القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) يستوجب تحقق شرائط هذا الانتظار، من تهيئة الإنسان المنتظر لنفسه من دون أن يتعجل في هذا الأمر وإلّا فسيكون

انتظاره انتظاراً سلبياً. وفي هذا المعنى ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج».

أي: أن الانتظار يمثل القيام بأعمال متمثّلة بتطهير النفس وتزكيتها، والقيام بالفرائض التي افترضها الله تعالى علينا.

فإذا ما حصل العكس صار الانتظار انتظاراً سلبياً قد يؤدي بالإنسان إلى الهلاك، وبالتالي يودّ أنّه لم يدرك هذا الأمر ولم ير ما يقوم به الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، وما يقتل من الناس؛ حيث روي «عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: «لويعلم الناس ما يصنع القائم (عليه السلام) إذا خرج، لأحبّ أكثرهم ألّا يروه مما يقتل من الناس. أما إنّه لا يبدأ إلّا بقريش، فلا يأخذ منها ألّا بالسيف، ولا يعطيها إلّا السيف، حتى يقول كثير من الناس: ليس هذا من آل محمد، لوكان من آل محمد لرحم»[٩].

ثم قال (عليه السلام): «وما أقرب اليوم من تباشير غد»:

البشارة: هي أوائل كلّ شيء، وتباشير الصبح أي: أوائله.

يشير الإمام (عليه السلام) هنا إلى الفرج الموعود على يد قائم آل محمد (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، بعد الفتن الحالكة التي أخبرهم (عليه السلام) بها، فلابدّ للشمس أن تشرق ولكن بعد أن تتم الغيوم عملها حيث أنّ لكلّ زمان شرائط لابدّ أن تتحقق.

فالثمار لا تقطف إلّا بعد نضوجها.

وقال (عليه السلام): «يا قوم هذا إبّان ورود كل موعود ودنوّ من طلعة ما لا تعرفون»:

المقصود بـ(إبّان) أي: الوقت.

وهنا يبيّن (عليه السلام) أنّه قد حان وقت حدوث الفتن التي ستبدأ من بعده (عليه السلام) إلى قيام القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

يقول الشارح المعتزلي: «أي:دنا وقت القيامة، وظهوره الفتن التي تظهر أمامها، وإبّان الشيء - بالكسر والتشديد -: وقته وزمانه، وكنّى عن تلك الأهوال بقوله: «ودنو من طلعة ما لا تعرفون»، لأنّ تلك الملاحم والآثار الهائلة غير معهود مثلها نحو دابة الأرض، والدجّال وفتنته، وما يظهر على يده من المخاريق والأمور الموهمة، وواقعة السفياني»[١٠].

ولعلّ مراده (عليه السلام) فتن بني أميّة وبني العباس إلى علامات القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ لأنّ قوله (عليه السلام): «هذا إبّان...» يدلّ على أنّ حين خاطبهم بهذا الكلام صار زمان ما وعدهم، وقرب ما أخبرهم.

روى النعماني في غيبته: أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) قال على منبر الكوفة: «أنّ من ورائكم فتناً مظلمة عمياء منكسفة لا ينجومنها ألّا النؤمة»[١١].

والمقصود من ورائكم أي: أمامكم؛ لما في قوله تعالى:«وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا».[١٢]

وفي رواية أخرى: «إنّ أميرالمؤمنين (عليه السلام) سئل عن قوله تعالى:«فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ».[١٣] فقال (عليه السلام): «انتظروا الفرج من ثلاث»، قيل: وما هنّ؟ قال: «اختلاف أهل الشام بينهم، والرايات السود من الخراسان، والفزعة في شهر رمضان». قيل: وما الفزعة؟ فقال: «أو ما سمعتم قوله تعالى: «إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ»[١٤]،هي آية تُخرج الفتاة من خدرها، وتوقظ النائم، وتفرع اليقظان»[١٥].

وروي عن الصادق (عليه السلام) قال: «العام الذي فيه الصيحة قبله الآية في رجب». قيل: وما هي؟ قال (عليه السلام): «وجه يطلع في القمر، ويد بارزة»[١٦].

والروايات كثيرة في هذا المعنى، فلا نريد أن نطيل ونكتفي بهذا القدر منها.

ثم قال (عليه السلام):«ألا وإنّ من أدركها منّا يسري فيها بسراجٍ منير، ويحذو فيها على مثال الصالحين».

لعّل الإمام (عليه السلام) أراد بهذه العبارة خصوص الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، ويعضده ما جاء بعد هذه العبارة من صفات غيبته، واستتاره عن أعين الناس، بحيث لا يمكن الوصول إليه ولو استقصي للطلب، وهوقوله (عليه السلام): «في شدّة عن الناس، لا يُبصر القائف أثره، ولوتلبع نظره».

أو لعّل المراد عموم أهل البيت (عليهم السلام) حيث أنّهم يتعاملون مع الفتن الكثيرة والمتنوعة با لحكمة والعقل، وبما تقتضيه مصلحة الدين كما يفعل الأنبياء والصالحين، أي: أنّهم (عليهم السلام) يمشون في ظلمات الفتن الحالكة بسراج منير، وهو نور الإمامة والولاية، بحيث لا توجب ظلمات تلك الفتن انحرافهم عن طريق الهدى، بل هم يسلكون طريق الحقّ المبين.

وهنا نقول: إنّ الرأي الأول هوالأنسب؛ لأنّ سياق الخطبة يوحي بذلك حيث أنّ المقام هو ذكر صفات ومميزات خاصة بإمام الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف). وهذا ما ذهب إليه ابن أبي الحديد المتعصب لأكثر المسائل المرتبطة بالإمامة لكنه في شرح هذه العبارة يقول: «إنّ المراد بها مهدي آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما ترى انطباق سائر الصفات المذكورة عليه، وإن كان اعتقاد العامة با لنسبة للإمام المهدي (عليه السلام) أنّه يولد في آخر الزمان)[١٧].

والغريب عند بعض العامة أنّهم لا يستوعبون بقاء الإمام (عليه السلام) على قيد الحياة هذه المدة الطويلة في حيث أنّ العمر الطويل ليس بدعاً في تأريخ البشرية، فهناك من عاش أكثر من هذا العمر، أمثال: نوح، وإلياس، وادريس، والخضر (عليهم السلام)، وغيرهم.

ثم تطرق الإمام (عليه السلام) إلى بعض من الخصائص المنطبقة على الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) حيث قال:«ليحُلّ فيها ربقاً، ويُعتِقَ رقّاً، ويصدعَ شعباً، ويَشعبَ صدعاً، في سُترة عن النَّاسِ، ولا يُبصرُ القِائفُ أثرهُ، ولو تابع نظرهُ»:

«ربقاً» أي: عقداً، ويأتي بمعنى الحبل، فيه عدّة عرى تشدّ به البهم.

«يعتق رقّاً» - بالكسر - ، أي: مملوكاً.

«ويصدع شعباً»: الصدع: يعني الشق، وصدعت الشيء: أظهرته[١٨]. والإظهار حيث يظهر باطن الشيء بالشق. ويصدع شعباً: أي: يفرق جمعاً.

«ويشعب صدعاً»، أي: الاجتماع والالتئام بعد التفرق.

والمراد من هذه العبارات هو أنّه (عجل الله تعالى فرجه الشريف) بظهوره يدفع الشبهات، ويحلّ المشكلات وعقدها، وكذلك يعتق الناس من الجهل والضلال؛ حيث يهتدي الكثير منهم بنوره إلى جادة الصواب والهداية، ويفرق جموع الباطل والضلال، ويميّز الأخيار المؤمنين عن غيرهم ممن يتظاهرون بالخير والصلاح كذباً وزوراً ورياءً. ثم أنّه (عجل الله تعالى فرجه الشريف) يجمع متفرق الحقّ ويوحد كلمة المؤمنين تحت لوائه. ويفعل الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) كل هذا مبتغياً وجه الله تعالى، وليس حباً للسمعة والشهرة وبحثاً عن المدح والشكر: وهذا هوالإخلاص الحقيقي الذي يمكن أن نجده إلّا عند أئمة هذا البيت الطاهر (عليهم السلام)، الذين وهبوا كل شيء لله تبارك وتعالى.

وبعد ذلك بدأ الإمام (عليه السلام) بذكر أنصار صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وأصحابه والعلماء المستجمعين لكمالات النفوس، ممن سلك طريق الحق، وهم من جاء منهم قبلنا ومن يأتي في آخر الزمان؛ حيث قال (عليه السلام): «ثم ليُشحذَنَّ فيها قوم شحذَ القَيْن النَّصْل، تجلى با لتنزيل أبصارُهُمْ، ويُرمى بالتفسير في مسامعهم، ويُغْبقون كأس الحكمة بعد الصَّبوح:

«ليُشحذنّ» - بلفظ المجهول، من شحذت السكين، أي: حددته.

«شحذ القيْن»،أي: الحداد.

«النصل»، أي: حديد السيف، والسكين.

«يغبقون»، - بلفظ المجهول -، و(الغبوق): الشرب بالعشي، فتقول: غقبته فاغتبق.

«كأس»، قال ابن الأعرابي: لا تسمّى الكأس كأساً إلّا وفيها الشراب[١٩].

«الحكمة»، أي: إتقان الأمور، والأصل فيها حكمة اللجام، وهي ما أحاط با لحنك.

«بعد الصَّبوح»،: أي: الشرب في الصباح، والغبوق والصبوح بكأس الحكمة استعارة كقول زرقاء اليمامة لمّا سُئلت عن سبب قوة عينيها قالت: (كنت أكحلهما بصبوح من صبر، وغبوق من أثمد)[٢٠].

هذه صفات أصحاب وأنصار الإمام المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف) المتميّزون بشجاعتهم وعلمهم بجلال الله وحرامه وبكتابه وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهم دائموا التعلّم صباحاً ومساءً ويزدادون استعداداً وتأهّباً. إنّهم الشيعة الحقيقيون الذين وصفهم الإمام الصادق (عليه السلام) حيث قال: «شيعتنا من لا يهرّ هرير الكلب، ولا يطمع طمع الغراب، ولا يسأل الناس بكفّه وإن مات جوعا». قيل له: أين نطلبهم؟ قال:«أطلبوهم في أطراف الأرض، أولئك الخشن عيشهم، المنتقلة ديارهم، الذين إن شهدوا لم يعرفوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن مرضوا لم يعادوا، وإن خطبوا لم يزوّجوا، وإن ماتوا لم يشهدوا، أولئك الذين في أموالهم يتواسون، وفي قبورهم يتزاورون، ولا تختلف أهواؤهم، وإن اختلفت بهم البلدان»[٢١].

قال الشارح البحراني - في مضمون العبارات السابقة -: (في أثناء ما يأتي من الفتن تشحذ أذهان قوم وتعدّ لقبول العلوم والحكمة، كما يشحذ الحدّاد النصل. ولفظ الشحذ مستعار لإعداد الأذهان، ووجه الاستعارة الاشتراك في الإعداد التام النافع، فهو يمضي في مسائل الحكمة والعلوم كمضي النصل فما يقطع به وهو وجه التشبيه المذكور»[٢٢].

أمّا المحقق الخوئي فقد قال في معنى: «يجلي با لتنزيل أبصارهم، ويرمي بالتفسير في مسامعهم»:

(أي: يكشف الرين، وتدفع ظلمات الشكوك والشبهات عن أبصار بصائرهم بالقرآن والتدّبر في بديع أسلوبه معانيه، ويرمي بتفسيره خق التفسير من مسامعهم، والجملة الثانية بمنزلة التعليل للأولى، يعني: أنّهم لتلقّيهم تفسيره على ما يحقّ وينبغي من أهل الذكر الذين هم معادن التنزيل والتأويل، وتحصيلهم المعرفة عنهم (عليه السلام) بمعاينه ومباينه وأسراره الباطنة والظاهرة وحكمه الجليّة والخفيّة ارتفعت أغطية الشبهات وغشاوة الشكوكات عن ضمائرهم وبصائرهم، فاستعدّت أذهانهم لإدراك المعارف الحقّة والحكم الإلهية، ولم تزل الأسرار الربانية والعنايات الإلهية تفاض عليهم صباحاً ومساءً وهذا معنى قوله: «ويُغبقون كأس الحكمة بعد الصّبوح»[٢٣].

ومما مّر علينا من البيان والتأويل لهذه الخطبة نستطيع أن نصل إلى الاستدلالات التالية:

١ - البشارة بظهور الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، ويعضد ها ما ورد من الروايات عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - عن الطريق الفريقين -، وكذلك روايات أئمة الهدى (عليهم السلام) في هذا المعنى.

٢ - إنّ الإمام المهدي - أرواحنا له الفداء - حي يرزق وهو إمامنا الذي لا يمكن أن تخلو الأرض منه فهو حجة الله على خلقه. وقد ورد في علل الشرائع بإسناده عن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبد الله: تبقى الأرض بغير إمام؟ قال: «لوبقيت الأرض بغير إمام ساعة لساخت»[٢٤].

٣ - إن خروج الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) سيكون في زمن قد فشلت فيه كل القوانين البشرية في إصلاح العالم، فيكون المصلح الأعظم للقرون جميعاً.

٤ - لا يتحقق الظهور ألّا بعد تحقق شرائطه، ومنها: وقوع الفتن التي أخبر عنها أمير المؤمنين (عليه السلام) - في خطبته -. وأن تتحقق حالة امتلاء الأرض با لجور والظلم. وكذلك الاستعداد التام والتهيئة لأنصار الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف)،

الذين سيخرج بهم لتطهير الأرض من الشرك والإلحاد والظلم والبغي.

٥ ـ إنّ الحكمة تكون في مواقف الاعتدال، وعدم الغلوّ في الأشياء؛ لأنّه قد يودي بالإنسان إلى التهلكة، وكما قيل في المثل: كل ما زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه. وفي هذا المعنى ورد عن النبي الأكرام (صلى الله عليه وآله وسلم): «أنا والله أخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكن أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، ومن رغب عن سنّتي فليس مني»[٢٥].

ومن هنا يتضح لنا بأنّ الاستعجال لهومن الغلو في الأشياء.

(٤)- «قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَهَا، وَأَخَذَهَا بِجَمِيعِ أَدَبِهَا، فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضَالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُهَا، وَحَاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْهَا، فَهُومُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الإِسْلاَمُ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ، وَأَلْصَقَ الأَرْضَ بِجِرَانِهِ، بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلاَئِفِ أَنْبِيَائِهِ»[٢٦].

«الجُنَّة»: بالضمّ نوع من السلاح، أوما استتر به من سلاح»[٢٧].

اختلف شراح النهج في بيان الفاعل لفعل (لبس)؛ لأنّ صدر الكلام لم يذكره السيد الرضي (رحمة الله)، فراحت كل طائفة تفسّر كلام الإمام (عليه السلام) حسب اعتقادها.

قال العلامة المجلسي: إنّه إشارة إلى القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف)، ونقله الشارح المعتزلي في الشيعة والأولياء.

وقال الصوفية: إنّه (عليه السلام) يعني به ولي الله في الأرض، وعندهم لا يخلو الدنيا من الأبدال والأولياء.

وقالت الفلاسفة: إنّ مراده (عليه السلام) به العارف.

وقالت المعتزلة: إنّه (عليه السلام) يريد به العالم بالعدل والتوحيد. وزعموا أنّ الله لا يخلي الأمّة من جماعة من المؤمنين العلماء بالتوحيد والعدل، وإنّ الإجماع إنّما يكون حجّة باعتبار قول أولئك، لكنه ما تعذرت معرفتهم بأعيانهم اعتبر إجماع الجميع، وإنّما الأصل قول أولئك.

قال ابن أبي الحديد ـ بعد نقل هذه الأقوال ـ: وليس يبعد أن يريد (عليه السلام) به القائم من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في آخر الوقت، إذا خلقه الله تعالى وإن لم يكن الآن موجوداً، فليس في الكلام ما يدّل على وجوده الآن، وقد وقع اتفاق الفرق من المسلمين أجمعين على أنّ الدنيا والتكليف لا ينقضي إلّا عليه. انتهى[٢٨].

وهنا نقول: الأصوب هو رأي الإمامية، أي: أنّ المراد به قائم آل محمد (عجل الله تعالي فرجه الشريف)؛ لأنّ قضية القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) مسلّم بها عند جميع المسلمين بتواتر الأخبار الواردة عنه (عليه السلام) مع اختلاف البعض من غير الإمامية بعدم وجوده الآن، وسيولد في آخر الزمان، وهذا مردود كما مرّ علينا سابقاً؛ لأنّ الأدلة العقلية والنقلية دلّت على عدم خلوّ الأرض من حجة، وإلا ساخت وانخسفت بأهلها. إضافة إلى ذلك فإنّ حجة الله لا تتم على عباده، ويعضد هذا كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) المتواتر لكميل بن زياد حيث قال: «اللهم بلى، لا تخلوالأرض من قائم لله بحجّة، إمّا ظاهراً مشهوراً، أوخائفاً مغموراً، لئلّا تبطل حجج الله وبيّناته»[٢٩].

ونأتي الآن لبيان مضامين ودلالات هذا الفصل من خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام):

«قد لبس للحكمة جنّتها»:

وردت لفظة الحكمة في كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ في مواضع عديدة، وقد فسّرها علماء التفسير بوجوه عديدة حسب الآية. فمثلاً في قوله تعالى: (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)[٣٠]، أي الفقه والمعرفة، وفي قوله: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)[٣١]، القرآن والشريعة، وفي قوله: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُواالْأَلْبَابِ)[٣٢]، أي: بتحقيق العلم وإتقان العمل.

وفي الروايات الشريفة معناها بوجوه عدة منها: عن العياشي عن الإمام الصادق (عليه السلام): «الحمكة المعرفة والفقه في الدين ومن فقه منكم فهوحكيم»[٣٣].

وعنه (عليه السلام): «معرفة الإمام واجتناب الكبائر التي أوجب الله عليها النار»[٣٤].

وفي الصافي من الكافي، وتفسير العياشي عن الصادق (عليه السلام) في تفسير هذه الآية: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُواالْأَلْبَابِ)، قال: «طاعة الله، ومعرفة الإمام»[٣٥].

وعن مصباح الشريعة عنه (عليه السلام): «الحكمة ضياء المعرفة، وميراث التقوى، وثمرة الصدق، ولوقلت: ما أنعم الله على عباده بنعمة أنعم وأعظم وأرفع وأجزل وأبهى من الحكمة لقلت.

قال تعالى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُواالْأَلْبَابِ)، أي: لا يعلم ما أودعت وهيأت في الحكمة ألّا من استخلصته لنفسي وخصصته بها. والحكمة هي الكتاب وصفة الحكيم هي الثبات عند أوائل الأمور، والوقوف عند عواقبها، وهو هادي خلق الله إلى الله»[٣٦].

وفي الكافي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إنّه كان ذات يوم في بعض أسفاره إذ لقاه ركب فقالوا: السلام عليك يا رسول، فالتفت إليهم وقال: «ما أنتم»؟ فقالوا: مؤمنون، قال: «فما حقيقة إيمانكم»، قالوا: الرضا بقضاءالله، والتسليم لأمرالله، والتفويض إلى الله، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «علماء حكماء كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء، فإن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون»[٣٧].

ومن هنا ترى أنّ الآيات الكريمة والروايات الشريفة دلّت على شرافة ومنزلة الحكمة. وإذا رجعنا إلى قوله (عليه السلام): «قد لبس للحكمة جنّتها» فالمقصود بجنة الحكمة مخافة الله - عزّ وجلّ -، وحيث جعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رأس الحكمة مخافة الله كما في الخصال عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): «رأس الحكمة مخافة الله»[٣٨]، حيث أنّ وجود الحكمة يكون رادعاً للنفس عن شهواتها وأهوائها، وبالتالي تكون جنّة من الوقوع في العذاب والهلكة، كما أنّ السلاح يستتر به مثل الدرع حتى لا يُصاب الإنسان با لأذى من قبل العدو.

ثم قال (عليه السلام): «وأخذها بجميع أدبها».

والمقصود أنّه عمل بموجبها، فأخذها بجميع كمالاتها وآدابها من الإقبال عليها والمعرفة بأحكامها، والتفرغ لها، والانصراف عن الفضول والخوض بما لا نفع فيه، أي: أنّه بعد ما عرف أنّ من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وأنّها ذات فضل وشرف أقبل عليها وحرص على أن تكون همّته فيها وترك كل ما يشغله من أمور الدنيا التي تتعارض مع الحكمة. فلا يمكن لعاقل أن يهتم بما وصفه الله في كتابه الكريم على أنّها متاع قليل - أي: الدنيا -، ويفوته ما فيه الخير الكثير- أي: الحكمة -.

ومن هذا المنطلق نجد أنّ الحكماء - ومنهم لقمان لزهده بأمور الدنيا، وورعه في الله، وعدم اكتراثه بما يمر عليه في هذه الدنيا، من الفرح لما أتاه، أو الحزن لما فقده، فإنّ الله تعالى آتاه الحكمة، وعصمه من الزلل، فكان أحكم أهل زمانه -.

وقال (عليه السلام): «فهي عند نفسه ضالته التي يطلبها، وحاجته التي يسأل عنها»:

هذا المعنى رواه الشريف الرضي في نهج البلاغة، حيث قال (عليه السلام): «الحكمة ضالة المؤمن»[٣٩]. وليس المراد أنّها غير موجودة، وإنّما أراد الشوق والمحبّة والرغبة بالحكمة لما فيها من الفضل بحيث أنّ الله تبارك وتعالى نقل حكم لقمان في كتابه الكريم في سورة لقمان، من الآية ١٣ - إلى الآية ١٩.

«فهومغترب إذا اغترب الإسلام»:

ولا يخفى بأنّ المراد بهذا المقطع من خطبة الإمام علي (عليه السلام) هوالإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) الذي يستترعن أعين الناس، ويختار العزلة، وذلك عندما يكون الإسلام غريباً ضعيفاً كما أخبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن ذلك عندما قال: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»[٤٠].

وروى النعماني في غيبته عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): أخبرني عن قول أميرالمؤمنين: «إنّ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء»، فقال (عليه السلام): «يا أبا محمد، إذا قام القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) استأنف دعاءً جديداً، كما دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)»[٤١].

وإذا اغترب الإسلام فالمؤمن يكون غريباً بينهم كما هوالشأن في عصرنا هذا.

«وضرب بعسيب ذنبه»:

عسيب الذنب: أي: أصله. وقيل: عسيب الذنب منبته من الجلد والعظم[٤٢].

وهنا كناية عن ضعف الإسلام وتبعه، فشبّهه (عليه السلام) بالبعير البارك، الذي تعب وتأذى ضرب بذنبه، أو أنّ المؤمن المخلص يكون بين القوم الفاسقين كالبعير الذي ألصق نحره في الأرض وضربها بذنبه، فلا يستطيع في شيء سوى ذلك. وقيل: معناه أنّه فارق أهل الفتنة، وضرب في الأرض ذاهباً في أهل دينه وأتباعه، الذين يتبعونه على رأيه وهم الأذناب.

وقال الزمخشري: الضرب بالذنب - هاهنا - مثل للإقامة والثبات، يعني: أنّه يثبت هو ومن تبعه على الدين[٤٣].

«وألصق الأرض بجرانه»:

في الصحاح: جران البعير: مقدّم عنقه من مذبحه إلى منحره، والجمع جرن، وكذلك من الفرس[٤٤].

قال ابن أبي الحديد: معنى الكلام: أنّه إذا صار الإسلام غريباً مقهوراً، وصار الإسلام كالبعير البارك يضرب الأرض بعسيبه – وهو أصل الذنب - ويصلق جرانه – وهو صدره - في الأرض فلا يكون له تصرّف ولا نهوض[٤٥]. ولا يخفى أنّ في الكلام إشارة إلى غيبة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

روى الصدوق في كماله عن عبد الله بن الفضل الهاشمي عن الصادق (عليه السلام) قال: «إنّ لصاحب هذا الأمر غيبة لابدّ منها، يرتاب فيها كُلّ مبطل». فقلت فَلِمَ - جعلت فداك -؟ قال: «لأمر لم يؤذن لنا في كشفه لكم». قلت: فما وجه الحكمة في غيبته؟ قال: «وجه الحكمة في غيبته، وجه الحكمة في غيبات من تقدّمه من حجج الله تعالى ذكره، إنّ وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلّا بعد ظهوره، كما لم ينكشف وجه الحكمة فيما أتاه الخضر (عليه السلام) من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار لموسى (عليه السلام)، إلى وقت افتراقهما»[٤٦].

وبعد ما وصفه الإمام (عليه السلام) بلبسه لجنّة الحكمة، وإيثاره العزلة والغيبة، عرفه بأنّه: (بقية من بقايا حجته) على عباده و(خليفة من خلائف أنبيائه) في بلاده. وهذا يرجّح بأنّ المراد بهذا الفصل من الخطبة هوالإمام القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

والمراد أنّ الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) هوالباقي من حجج الله تعالى، الذين يحتجّ بهم على عباده وهو امتداد لأنبيائه ورسله.

روى الصدوق في (كمال الدين) عن الورّاق عن سعد بن عبد الله، عن أحمد بن إسحاق الأشعري، قال: دخلت على أبي محمد الحسن (عليه السلام) وأنا أريد أن أسأله عن الخلف من بعده، فقال لي مبتدءاً: «يا أحمد بن إسحاق، إنّ الله تعالى لم يخل الأرض منذ خلق آدم، ولا يخليها - إلّا أن تقوم الساعة - من حجة الله على خلقه، به يدفع الله البلاء عن أهل الأرض، وبه ينزل الغيث، وبه تخرج بركات الأرض»، فقلت له: يا بن رسول الله، فمن الإمام والخلف بعدك؟ فنهض مسرعاً، فدخل البيت، ثم خرج

وعلى عاتقه غلام كأنّ وجهه القمر من أبناء ثلاث سنين، فقال: «يا أحمد لولا كرامتك على الله عزّ وجلّ، وعلى حججه، ما عرضت عليك ابني هذا، إنّه سمي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكنيّه الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يا أحمد، مثله في هذه الأمّة مثل الخضر، ومثل ذي القرنين: والله ليغيبنّ غيبة لا ينجو من الهلكة فيها إلّا من ثبّته الله عزّ وجلّ على القول بإمامته، ووفّقه فيها للدعاء بتعجيل فرجه». قال أحمد: قلت: يا مولاي فهل من علامة يطمئن إليها قلبي؟ فنطق الغلام بلسان فصيح فقال: «أنا بقية الله في أرضه، والمنتقم من أعدائه، ولا تطلب يا أحمد أثراً بعد عين».

فخرجت فرحاً، فلمّا كان من الغد عدت إليه، فقلت: يا ابن رسول الله، لقد عظم سروري بما مننت به عليّ، فما السنّة الجارية فيه من الخضر وذي القرنين؟ قال: «طول الغيبة»، قلت: وإنّ غيبته لتطول؟ قال: أي وربّي، حتى يرجع عن هذا الأمر أكثر القائلين به»[٤٧].

وفي هذا المقطع من الخطبة يقول ابن أبي الحديد المعتزلي:

فإن قلت: أليس لفظ الحجّة ولفظ الخليفة مشعراً بما تقوله الإمامية؟ قلت: لا، فإنّ أهل التصوّف يسمّون صاحبهم حجّة وخليفة، وكذلك الفلاسفة، وأصحابنا لا يمتنعون من إطلاق هذه الألفاظ على العلماء المؤمنين في كل عصر، لأنّهم حجج الله، أي: أجماعهم حجّة، وقد استخلفهم الله في أرضه ليحكموا بحكمه.

أقول: إنّ هذا مردود؛ حيث أنّ حجّة الله لابدّ أن تكون معصومة فهي تمثل الأسوة بالنسبة للخلق، فلا يحتجّ الله تعالى على عباده بشخص يمكن أن يرتكب الذنوب والمعاصي كسائر الناس.

وهنا كيف يقتدي الناس بحجّة منحرفة؟ ثمّ أنّ الشارح المعتزلي يقول: إنّ المتصوّفة والفلاسفة وأصحابه المعتزلة يطلقون لفظ الحجة، فهذا ادّعاء بإطلاقهم لهذا اللفظ ولا يستند إلى شيء.

وأمّا حجيّة العلماء، وأنّهم ورثة الأنبياء، ليس من باب أنّ قوله حجّة؛ لأنّه عالم، بل على اعتبار دخول قول المعصوم في جملة قوله، فيكون بذلك حجّة.

وأمّا قول البحراني: أنّ العلماء والعارفين هم حجج الله في الأرض على عباده - استناداً إلى حديث: «العلماء ورثة الأنبياء» -، وهذا أيضاً لا وجه له؛ لأنّ الوراثة هنا ليست وراثة حقيقية، وإنّما جاء من باب التشبيه والمجاز، أي: أنّهم أخذوا علومهم أو ورثوا علوم الأنبياء، في حين أنّ وراثة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) وخلافته هي وراثة وخلافة حقيقية.

ومن بعد ما مرّ علينا من البيان والتأويل في هذه الخطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام) نذكر فيما يأتي بعض الاستدلالات التي توصلنا إليها وهي:

١ - لا يمكن أن تجتمع الحكمة مع هذه الدنيا ولهوها ولذاتها، فالحكيم من لا يكترث بهذه الدنيا وما يمر فيها من الفرح والحزن وغيرها.

٢ - إنّما صارت الحكمة جنّة من الوقوع في العذاب والهلكة، وذلك كونها تمثّل رادعا لنفس الإنسان من شهواتها وأهوائها.

٣ - إنّ وصف أمير المؤمنين (عليه السلام) لولده القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) حين قال: «لبس للحكمة جنّتها» يبيّن أنّه (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أراد الحكمة لأجل الحكمة لا لأجل أن تكون درعاً يستتر به من الوقوع في الهلكة كما عند من لبس الحكمة من عوام الناس؛ وذلك لأنّه (عجل الله تعالى فرجه الشريف) معصوم فلا يحتاج إلى مثل هذه الدرع لكي يستتر به من الوقوع في العذاب والهلكة.

٤ - عودة الإسلام غريباً دليل عودة الجاهلية الأولى في آخر الزمان؛ حيث لم يبق من الإسلام إلّا اسمه، ومن القرآن إلّا رسمه؛ وذلك لابتعاد الناس عن تعاليم الإسلام الأصيلة وعن مناهج القرآن الكريم، وعند ما يكون المؤمن سجيناً في مجتمع من غير

سنخه.

يتبع ...

---

[١] . شرح النهج / لابن أبى الحديد خطبة ١٥٠، ٩:١٢٦.

[٢] . نهج البلاغة، خطبة:١٩٠.

[٣] . سورة النحل، الآية:١.

[٤] . غيبة النعماني:١٣٢.

[٥] . نفس المصدر: ١٣١- ١٩٨.

[٦] . غيبة النعماني: ١٣١.

[٧] . نفس المصدر: ١٣٤.

[٨] . نفس المصدر:١٣٩.

[٩] . غيبة النعماني: ١٥٣.

[١٠] . شرح النهج / لا بن أبي الحديد ٢ : ٤١٦.

[١١] . غيبة النعماني: ٩٢.

[١٢] . سورة الكهف، الآية: ٧٩.

[١٣] . سورة الزخرف، الآية: ٦٥.

[١٤] . سورة الشعراء، الآية: ٤.

[١٥] . غيبة النعماني: ١٦٨.

[١٦] . نفس المصدر: ١٦٨.

[١٧] .شرح النهج / لا بن أبي الحديد ٩: ١٢٨.

[١٨] . صحاح اللغة ٣: ١٢٤١، مادة (صدع).

[١٩] . لسان العرب ٦: ١٨٩، مادة (كأس).

[٢٠] . راجع أساس البلاغة / للزمخشري: ٦٧٠.

[٢١] . غيبة النعماني: ١٣٦.

[٢٢] . شرح النهج / لابن ميثم البحراني ٣ : ٢٠٢.

[٢٣] . منهاج البراعة / للمحقق الخوئي ٩ : ١٣٠.

[٢٤] . البحار / للمجلسي ٢٣ : ٢١.

[٢٥] . صحيح البخاري ٥ : ١٩٤٩، ح ٤٧٧٦، تفسير القرطبي ٦ : ٢٦١، سنن البيهقي الكبرى ٧ : ٧٧، ح ١٣٢٢٦، الترغيب و الترهيب
٣ : ٣٠، ح ٢٩٥٣، فتح الباري ١٠ : ٥٤١، ح ٥٧٥١، صحيح ابن حبان ٢ : ٢٠، ح ٣١٧.

[٢٦] . شرح النهج / لابن أبي الحديد، خطبة: ١٨٣، ١٠ : ٩٥.

[٢٧] . صحاح اللغة ٥ : ٢٠٩٤، مادة (جن).

[٢٨] . البحار / للمجلسي ٥١ : ١١٤، و شرح النهج / لابن أبي الحديد ١٠ : ٩٦.

[٢٩] . شرح النهج / لابن أبي الحديد، الكلمات القصار: ١٤٣، ١٨ : ٣٤٧.

[٣٠] . سورة آل عمران، الآية: ٤٨.

[٣١] . سورة الجمعة، الآية: ٢.

[٣٢] . سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

[٣٣] . البحار / للمجلسي ١ : ٢١٥، ح ٢٥، ميزان الحكمة ١ : ٢٧٢، ح ٩١٩.

[٣٤] . شرح أصول الكافي ٩ : ٢٧٢، ح ٢٠.

[٣٥] . شرح أصول الكافي ١ : ١٣٦، ميزان الحكمة ١ : ١١٩، ح ١٤٣.

[٣٦] . التفسير الصافي ١ : ٢٩٩، التفسير الأصفر ١ : ١٢٩.

[٣٧] . المحاسن ١ : ٢٦٦، الكافي / للكليني٢ : ٥٣، ح ١.

[٣٨] . ميزان الحكمة ١ : ٦٧٣، ح ٩٢٢، التفسير الصافي ١ : ٢٩٩.

[٣٩] . رواه الشريف الرضي في نهج البلاغة ٤ : ٨٠، الحكمة: ١٨، عن علي (عليهم السلام).

[٤٠] . ميزان الحكمة ٢ : ١٣٤٤، صحيح مسلم ١ : ٩٠.

[٤١] . الغيبة / للنعماني: ٢٢١.

[٤٢] . صحاح اللغة ١ : ١٨١، مادة (عسب).

[٤٣] . النهاية / لابن الأثير ٣ : ٢٣٤، مادة (عسب)، و النقل بتصرف في الترتيب.

[٤٤] . صحاح اللغة ٥ : ٢٠٩١، مادة (جرن).

[٤٥] . شرح النهج / لابن أبي الحديد ٢ : ٥١٦.

[٤٦] . كمال الدين / للصدوق: ٤٨١، ح ١١.

[٤٧] . كمال الدين / للصدوق: ٣٨٤، ح ١